العرب
الجمعة 2021/03/05
السنة 43 العدد 11990

البشر يحكمهم إما الاقتناع الأخلاقي أو المسؤولية الواقعية

إيتيقا الاقتناع وإيتيقا المسؤولية رؤيتان ضروريتان في عالم يواجه الحروب والدسائس

عندمـا يقوم الفرد بما يعتقد أنّه واجـب، فإنّه يترك الأمر موكولا للحظّ أو القدر، أو يستعدّ للإجابة عن آثار فعله، حتّى وإن كانت غير مباشرة وغير آنية، ويسـعى لتكييفه حسب المعطيات المستجدّة. ولا يعني ذلك أنّه يختار بين ما يسميه ماكس فيبر إيتيقا المسؤولية أو إيتيقا الاقتناع بشكل نهائيّ، لأن الوضع البشري يجعل مسألة الاختيار تتجدّد على الدوام.

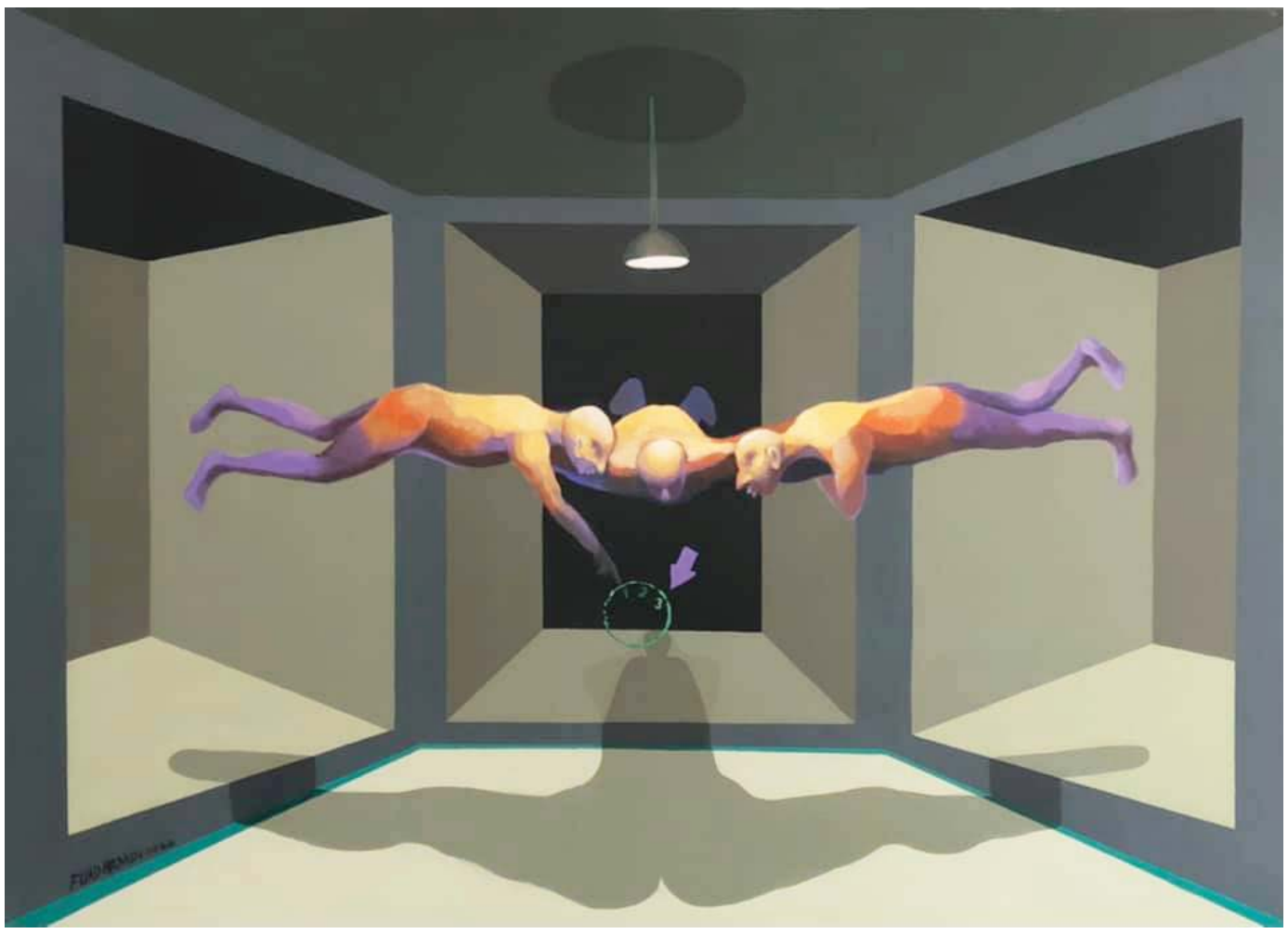

المثل العليا عالم خيالي (لوحة للفنان فؤاد حمدي)

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

في محاضرة ألقاها عام 1917 بجامعة مونيـخ، حلل عالـم الاجتمـاع الألماني ماكس فيبر الفرق بيـن إيتيقا الاقتناع، أي الإرادة الطوباويـة التائقـة إلى عالم المُثُـل، وإيتيقا المسـؤولية، أي تطبيق تلك الإرادة في سيرورة التاريخ.

وبيّن فيبر ألا وجود لإيتيقا يمكن أن تتجاهـل أننا من جهـة نضطر في أغلب الأوقـات، لكي نبلغ غايـات "خيّرة"، إلى اسـتعمال وسـائل غير نزيهة من وجهة نظـر أخلاقية، وفي الأقـل خطيرة، ومن جهـة ثانيـة نفتـح الباب أمـام عواقب وخيمة ممكنة أو محتملة. وليس ثمة في العالم إيتيقا يمكن أن تنبئنا عن اللحظة ولا عن الصيغة التـي تبرر فيها النهايةُ السـعيدة أخلاقيا الوسـائلَ والعواقبَ الخطيرة أخلاقيا.

الإشكالية الفيبرية

لقـد ظلـت ثيمـة فيبـر عـن إيتيقا الاقتنـاع وإيتيقـا المسـؤولية مثـار جـدل بيـن المثقفين والسياسـيين في الديمقراطيات الغربية، لكونها توجّه في أكثر مظاهرها مسار التحول السياسي، وتطـرح مشـكلة المسـافة بيـن الواقع والمثل العليا، بين المرامي التي تخضع للاختيار، أي لا تقوم على أساس ثابت، وبين واقع غير مكتمـل لا يمكن تحويله إلا متى أخذنـا بعين الاعتبـار ما يطرأ على أي فعل من تباطؤ.

> هناك نوعان من الإيتيقا، إيتيقا الاقتناع وجذورها فلسفة كانت وإيتيقا المسؤولية التي تستند إلى الفلسفة الاستتباعية

وفـي أحسـن العوالـم الممكنـة لا يبدو الاقتناع والمسـؤولية متعارضين، خصوصـا إذا تعلق الأمـر بعالم يواجه الحرب والدسـائس، لأن هـذا التعارض يبرز في الأوقات التي تسـتدعي الحسم، فيفـرض عندئـذ نفسـه دون أن يكـون واضحا تمام الوضـوح. فالاقتناع ليس لـه مرجعية قارة لا يمكن المسـاس بها، وممارسة المسؤولية لا يمكن أن تؤطّرها بسهولة معايير تحدد ما تنطوي عليه.

إن الإشكالية الفيبرية تطرح بوضوح مفـردات الجـدل، وتحـدد بدقـة معنى الكلمتيـن وظروف تطبيقهمـا، وتمنعنا من اسـتعمالهما بشـكل مجرّد، منفصل عن تنظيـم الوظائـف الاجتماعية التي يمكـن أن تكتسـب بداخلهمـا نوعا من التأثير. فالغاية بالنسبة إلى فيبر ليست اسـتخلاص إيتيقا فريدة أو أخلاق ذات بعد كونيّ، وإنما إيتيقا خاصة بنشـاط محدد له غايته المخصوصة.

إن إيتيقا المسؤولية، كما يتصورها فيبر، ترجع بالنظر إلى العقلانية الغائية، أي أن ثمة غاية يصبو إليها الناشـط أو الفاعـل، وتتميـز بتخيّر الوسـائل من أجل أفـق مضاعـف: فعاليتـه العملية والميدانيـة عمـلا بقاعـدة الغاية تبرر الوسـيلة من جهة، وما يتعلق بالعواقب من جهة ثانية. فالعناية بالفعالية تشجع علـى البرغماتية والتوافـق والميل إلى تعديـل الوسـائل والغايات حسـب ما يمكـن أن يطرأ على الفعل، فيعاد رسـم أبعاد الغاية المنشـودة، وهـو ما يعبر عنـه فيبر أحيانا بـ"إيتيقـا النجاح" أو "إيتيقا التكيف مع الممكن".

وعادة ما يمـرّ الاحتراس من عواقب الوسـائل المسـتعملة وعواقب الأعمال المزمـع إنجازهـا بالخصائص المميزة لإيتيقـا المسـؤولية، أي تصور احتمال الفشـل ومجانبـة الهدف المنشـود، أو إمكانيـة إضـراره بغايـات أخـرى لها أهميتهـا على مسـتوى القيـم الواجب احترامهـا. والاحتـراس مـن العواقب يشـمل مراعـاة آثار العمل فـي مختلف مظاهره علـى المعنيين بالأمر، فالقاعدة الأساسـية فـي إيتيقا المسـؤولية هي النظر في العواقب، ما يسـتدعي الوقاية والحذر.

وفيبـر إذ يؤكـد علـى أن إيتيقـا المسـؤولية تلقـى علـى عاتـق القائم بالفعـل، وعلى رجل السياسـة تحديدا، يبـدو متأثـرا بالظـرف التاريخي الذي عاش فيه، فقد تصور أن غاية السياسـة، وغايـة كل رجـل سياسـي حـق، هـي عظمـة الدولـة القومية وقوّتهـا. وهو ما عيب عليـه، مثلما عيب على نيتشـه قبلـه احتفـاءه بالأوبرمانش (الإنسـان الأسمى).

وأمّـا إيتيقـا الاقتنـاع فمرجعيتها عقلانية قيمية، أي أنها تهتم أساسا بعدم التنكر لأي قيمة، وعدم انتهاك أي معيار، (كالتزام الصدق والطيبة واحترام الغير وتجنـب اسـتعمال العنـف...) وغايتها التمسك بانسـجام تام مع قناعة معينة، أيـا ما تكن الظـروف، فالواقع من وجهة نظـر المقتنع بها ليـس واقعا ماديا، بل هـو واقع القيم التـي لا تخضع لزمن أو تحوير أو تحريـف، والتي ينبغي الوفاء بها مهما كانت التبعات المادية.

وتسـتوجب إيتيقـا الاقتنـاع صفاء الوسائل المطلق ولا تنظر إلى العواقب، فليسـت الفاعلية هي المطلوبة هنا، أي انتصـار ماديّ لقيمة مـن القيم، بل مدى احتـرام الفاعـل لتلك القيمة مـدّةَ فعله، لأن الفاعـل الأخلاقـي لا يهتم بالعواقب، وإنما بصفاء نيته، وهو ليس مسؤولا إلا عن طبيعـة إرادته، والباقي متروك للحظ والعنايـة الإلهية، أي أنهـا بعبارة فيبر "إيثيقا مطلقة" لا تهتـم إلا باحترام قيمة مـا، دون اعتبار للقيم الأخرى التي يمكن أن تهدد تلك القيمة.

ورغـم أنها فرديـة أساسـا، باطنية ينطـوي عليها صاحبهـا، فهي لا تقصر آثارهـا علـى الفاعـل الأخلاقـي الـذي يمارسـها، بل قد تمتد إلـى غيره وتعود عليـه بالمضرة، وفيبـر يضرب مثلا عن علاقتهـا الممكنة بالألفيـة (نظريّة تقول بمُلْـك المسـيح ألـف سـنة قبـل قيامة الموتى) وبالدمار الكارثي المعلن للعالم، لفسـح المجال لعالـم جديد. والسـبب أن صاحـب الاقتناع المطلـق لا يحتمل اللاعقلانية الإيتيقيـة للعالم، ولذلك فهو ينتظر أن تؤول أفعال "المفسـدين" إلى عواقب وخيمـة، بل يتمنى حدوثها حتى يعترف له العالم بأنه كان على صواب.

كمـا أن صاحب ذلك الاقتنـاع يمكن أن يلجـأ إلـى العنـف الراديكالي ليزيل الشـر ويقيم عالمـا لا يحوّلـه الآخرون إلـى جحيـم. فـلا العلـوم ولا التقنيات الحديثة التي تسـمح بالتكهن بما يأتي، والعمـل على تحسـينه أو تلافيه بقادرة علـى تغيير من يمـارس إيتيقا الاقتناع، لأنه لا يحتـاج لغير إيمانـه وحده. ولو أن العلم نفسـه يمارس إيتيقـا الاقتناع لكونـه مضطـرا إلى احترام قيـم العلم، وفي طليعتهـا الحقيقة. وهو ما لا يمكن أن يدعيه رجل السياسـة، لأنه مدعو إلى التوافق والتنازل وتغيير المواقف.

نوعان من الإيتيقا

جملـة القـول إننـا إزاء نوعين من الإيتيقـا. إيتيقـا الاقتنـاع التـي تجـد جذورهـا في المبدأ الكانتي عن الواجب: ينبغي التصرف وفق مبادئ سامية نؤمن بها. وإيتيقا المسؤولية التي تستند إلى الفلسـفة الاسـتتباعية: ينبغي التصرف على ضـوء الآثار الملموسـة التي يمكن توقعها بصفة معقولة.

ولو طبقنا نوعي الإيتيقا على الجدل الذي رافق رسـوم الكاريكاتير في فرنسا لوجدنـا أنفسـنا أمـام إيتيقـا اقتناع تؤمن بمبـدأ حرية التعبيـر، وتعتقد أن الديمقراطيـة تفتـرض حـق أيّ كان في قول مـا يريد قوله، حتى وإن أسـاء إلى جانـب من المواطنيـن. تقابلهـا إيتيقا مسـؤولية تحذر من العواقـب الممكنة، المتمثلـة في الإهانة التي تلحق معتنقي الديانة الإسلامية، وحتى المنتمين إليها من جهة الثقافة والحضارة، والتي تدفع بالراديكاليين منهم إلى ردود فعل عنيفة، دفاعا عن رسولهم ودينهم.

يقول المفكر الفرنسـي ديديي فاسّان "يمكن أن ندافع عن هـذه الإيتيقا أو تلك، ولكننا لا نسـتطيع بحـال أن نعتبر هذا الموقـف إيتيقيا وننكر ذلك على سـواه. فالمفارقـة مثلا أن من يدافعون عن حرية التعبير تبلغ بهـم راديكالية موقفهم حدّ رفضهـم حق الآخريـن فـي التعبير عن مواقفهم".

الكاتب المغربي مراد الخطيبي: هناك استسهال للترجمة الأدبية

الربـاط – قـدم الكاتـب المغربي مراد الخطيبي مؤخرا مؤلفا بعنوان "الترجمة الأدبية.. الممكن والمأمول"، وفي ما يلي حديث معه حول خصوصيات هذا النوع من الترجمة، والصعوبـات التي تواجه المشـتغلين به، كما وقف عند المساهمة المغربية في حركـة الترجمة الأدبية في العالم العربي وسبل النهوض بها.

ويقـر الخطيبـي بأنـه يحـاول في هذا المؤلـف التطرق إلـى مجموعة من المشـاكل والصعوبـات التـي تواجـه المترجمين في عمليـة الترجمة، وأيضا الحلول المقترحـة من طرفهم لتذليل هـذه الصعوبات. كما يتناول قيمة الترجمة وقدرتها على نفـض الغبار عن بعض الكتب الإبداعية التي طالها النسـيان، وبالتالـي بعثها إلـى الحيـاة مـن جديـد وإعادة طرح ما جاء فيها للنقاش والتداول سواء علـى مسـتوى سـماتها الفنية أو الفكرية والثقافية.

يطرح المؤلف، كذلك، سـؤال الإبداع فـي الترجمـة، ومـا إذا كان بإمـكان الترجمة، بتعبير الفيلسـوف الفرنسـي موريس بلانشـو، أن ترقى إلى مستوى الكتابة الإبداعية؟

ويرى أن نظريات الترجمة سـاهمت بشـكل فعـال فـي اقتـراح مجموعة من الآليـات والإسـتراتيجيات الترجميـة، والتي أثبتت الدراسـات العلمية قيمتها وفاعليتها. وهناك الكثير من المترجمين يسـتعملون هذه الإسـتراتيجيات دون إدراك أو وعـي، نظرا إلى افتقارهم ربما إمـا لتكوين أكاديمي في مجال الترجمة، أو ربما لعـدم اطلاعهم علـى النظريات الترجمية بشكل عام.

وللقيـام بعمليـة نقديـة لعمليـة الترجمة ومحاولة الإجابة عن إشـكالية الترجمة بيـن الممكـن والمأمول، يضم كتاب الخطيبي مجموعة من الدراسـات تتـوزع بيـن ترجمـة الشـعر وترجمة الرواية وترجمة شعر "الهايكو".

وحول خصوصيـة الترجمة الأدبية يقـول الخطيبي "تبقى الترجمة، على الرغم من هذه الصعوبات والحواجـز عمليـة ممكنة كمـا يقـول المفكـر المغربي عبدالسلام بنعبد العالي، الذي يؤكـد أيضـا على أنها ليسـت 'انتقـالا مـن محتوى دلالـي قار نحو شـكل مـن التعبير مخالف، وإنما هي نمو وتخصيب للمعنى بفعل لغة تكشـف، بفضـل عملية التخالـف الباطنية، عـن إمكانيات جديدة'".

ويؤكـد الكاتب أن الترجمـة الأدبية التي تشـكل محور هـذا المؤلف تعتبر من أهـم وأصعـب أنـواع الترجمة لأن إشـكالياتها تتجاوز فـي بعض الأحيان المبنى والمعنى والوقع أو الأثر لتصبح عمليـة الترجمـة ذات رهانات أقوى، لأن الكتابـة الإبداعيـة تنحـاز إلـى ما هو جمالـي وفنـي تحديدا، ويصبـح رهان المترجـم كيفية المحافظة على العناصر الجمالية الموجودة فـي النص الأصلي مع مراعاة الخصوصيـات الثقافية للغة المترجم منها واللغة المترجم إليها.

وفـي رأيه تتحـدد الترجمـة الأدبية ضمن عدة مستويات وأنساق وتعترضها عـدة صعوبـات وتحديـات أهمها على الخصـوص المحور الثقافـي والمحور اللغـوي ومسـتوى بناء النـص المراد ترجمته. وهذه المستويات كلها متقاربة ومتشـابكة ولا يمكن الفصل بينها، فهي أساسـية باعتبارها خصوصيات للنص الأصلـي وأيضـا باعتبارهـا إشـكالات ينبغي أخذها بعين الاعتبار مجتمعة في عمليـة الترجمة وإلا فسـتصير الترجمة مثل ترجمة نص عام ليس إلا.

بيـد أن هـذا التعامـل الخـاص، في رأي الخطيبـي، ينبغـي أن يرافقه اطلاع ومعرفة من قبـل المترجم لأهم النظريات فـي الترجمة وأهم الحلـول التي أتى بها الباحثـون مـن أجـل تذليـل الصعوبات أمـام المترجمين. لهـذا فالمترجم مكون أساسي في مدى نجاح عملية الترجمة أو فشـلها. وهذا ما يوضحه مثلا الفيلسوف الألماني وولتـر بنيامين، الذي يؤكد على أن المترجـم الأدبي لا ينقل فقط معلومات وإنما مقومات شـعرية وإبداعية، ويجب عليه هو أيضا أن يكون مبدعا لكي يحافظ على قيمتها الجمالية في اللغة الهدف، كما أنه لا يمكن الحديث عن ترجمة معينة دون الرجوع إلى النص الأصلي ومقارنتها به.

الترجمة ما زالت محصورة في الجهد الفردي

وإثر سـؤاله عن سـبب صعوبة فهم الكثيـر مـن الأعمـال الأدبيـة العالمية المترجمـة إلـى اللغـة العربيـة يقـر الخطيبـي بـأن هناك استسـهالا لمجال الترجمة وللترجمـة الأدبية بدرجة أكبر. ذلـك أن البعـض يتعامل مـع النصوص الأدبية والإبداعية وكأنها نصوص عامة، ويتغافل عن إشـكاليات السياق والثقافة وخصوصيـات اللغـة الأصـل واللغـة الهدف، بالإضافة إلى إشكالية المحافظة على السمات المجازية والجمالية للنص الأصلي.

ويضيـف "هـذا الاستسـهال ينتـج بطبيعـة الحـال نصوصا مفككـة البناء ومبتـورة المعنـى وفاقدة للـروح وكذا للأثر الجمالي الذي يعتبر بطبيعة الحال من الخصائـص المهمة للنص الإبداعي، وغالبا مـا يتم الاسـتناد إلـى الترجمة الحرفية التي لا تكون دائما إستراتيجية ناجحة".

أما عـن أهميـة التكويـن الأكاديمي في مجـال الترجمـة ودور المؤسسـات الجامعيـة المغربية فيه فيلفت الخطيبي إلى أنه قد توجد بعض المبادرات الفردية لبعض الأكاديميين الذي يحفزون طلبتهم علـى الاشـتغال علـى مشـروع ترجمة جماعيـة لروايـة أو لجـزء منهـا مثلا، أو ترجمـة مجموعـة شـعرية أو بعض النصوص. وهي مبـادرات غالبا ما تأتي مـن أكاديميين أدباء أو عاشـقين عموما للترجمـة الأدبية. وبالتالي لا بد من إيلاء الترجمة الأدبية المزيـد من الاهتمام من طـرف الجامعـات المغربية والاشـتغال على ترجمـة كتب إبداعية خلال السـنة الدراسـية دون إغفـال تدريـس أهـم النظريات في الترجمة الأدبية.

> المترجم الأدبي لا ينقل فقط معلومات وإنما مقومات شعرية وإبداعية ويجب عليه هو أيضا أن يكون مبدعا

وفـي تقييمه لمسـاهمة المغاربة في حركة الترجمة الأدبية في العالم العربي، وخصوصا أن الكثيرين يرون أنها عبارة عن مبادرات فردية بالأساس، يقول الكاتب "لا بد من الإشادة بالمساهمة الفعالة التي يقوم بهـا المترجمون المغاربة في حركة الترجمة الأدبية في العالم العربي. ونؤكد هنـا أن الأمـر يتعلـق بمبـادرات فردية تنـدرج إما ضمن اهتمامـات المترجمين بأعمـال أدبية معينة وإمـا ضمن اقتراح مـن كاتب النص الأصلي أو ضمن اقتراح من الناشر في بعض الأحيان".

ويشـدد علـى أنـه للنهـوض بهذه المسـاهمة لا بد من تجميع هذه الجهود الفردية المتفرقة ضمن مؤسسـة عمومية متخصصـة فـي الترجمـة تسـخر لها الدولة الإمكانيات اللازمة، لتعد برنامجا سـنويا خاصا بترجمة الأعمال التي يتم اختيارها حسب أهميتها وقيمتها الفنية من وإلى اللغة العربية.